

الباب الأول / الفصل السابع: دولة المدينة وحماية الجبهة الداخلية والخارجية

الْكِتَابَ وَمُهِمِّنَا عَلَيْهِ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَآءَاتِنِكُمْ ﴿١﴾

ثالثاً: هوية الإسلام المتميزة:

في خضم صراع الإسلام الفكري مع اليهود في المدينة، فقد أخذت آيات القرآن الكريم تنزل على الرسول ﷺ لتؤكد تميز الإسلام عن الديانات السماوية الأخرى، وبخاصة اليهودية، ولتبرير البعد العربي في الرسالة الإسلامية. وكانت أهم التشريعات التي نزلت على الرسول ﷺ في السنوات الأولى من هجرته إلى المدينة ما يلي:

١. تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة:

لقد كان المسلمون يتوجهون في صلاتهم إلى بيت المقدس: غير أن الرسول ﷺ كان يتطلع إلى نزول تشريع يجعل القبلة إلى الكعبة/ لأنه البيت العتيق الذي بناه إبراهيم لعبادة الله تعالى. وقد استجاب الله تعالى إلى أمنية الرسول ﷺ فنزل عليه الوحي بتحويل القبلة إلى الكعبة، وكان ذلك بعد مضي ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً على هجرته إلى المدينة (٢).

جاء في القرآن الكريم: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (٣). وقد روى البخاري حديثاً يوضح كيفية تحويل القبلة إلى الكعبة وموقف اليهود من ذلك فقال: "عن البراء ﷺ عنه أن النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده من الأنصار وأنه صلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وأنه صلى أول صلاة صلاها العصر، وصلى معه قوم فخرج رجل فصلى معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت. وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قبل بيت المقدس، وأهل الكتاب، فلما ولي وجهه قبل البيت، أنكروا ذلك" (٤).

(١) سورة المائدة، الآية ٤٨.

(٢) ابن هشام: السيرة، ق ١، ص ٥٥٠، ابن المبارك: التجريد الصحيح لأحاديث الجامع الصحيح، ج ١، ص ١٢.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٤٤.

(٤) ابن المبارك: التجريد الصحيح، ج ١، ص ١١ - ١٢.

بيت المقدس
الكعبة
١٦
١٧ شهر

لقد رد القرآن الكريم على اعتراض اليهود في تحويل القبلة واستنكارهم له بقوله: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتُمْ عَلَىٰ كَيْفَ كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ قُلْ لَّهِ الشُّكْرُ وَالْمَغْفِرَةُ بِيَدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ١٢٤ ﴾ (١)، كما أشار إلى استحالة كسب اليهود لإنباع قبلة المسلمين بقوله: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ١٢٥ ﴾ (٢).

2. الأذان وسيلة للدعوة إلى الصلاة:

كان المسلمون بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة يجتمعون للصلاة في المسجد في الوقت المحدد لها من غير دعوة مخصوصة، "فتكلموا يوماً في ذلك فقال بعضهم اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى" وقال بعضهم، بل بوقاً مثل قرن اليهود، فقال عمر: أولاً تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة؟ فقال رسول الله ﷺ: يا بلال قم فنادي بالصلاة" (٣).

ناقوس
النصارى

بوقاً مثل
قرن اليهود

وقد أوضح ابن إسحاق أن مسألة الدعوة إلى الصلاة قد شغلت فكر رسول الله ﷺ والمسلمين فترة من الوقت "فهم رسول الله ﷺ حين قدمها - المدينة - أن يجعل بوقاً كبوق يهود الذي يدعون به لصلاتهم، ثم كرهه، ثم أمر بالناقوس، فنحت ليضرب به للمسلمين للصلاة وبينما هم على ذلك" (٤)، إذ جاء أحد المسلمين من الأنصار ويدعى عبد الله بن زيد فاقترح صيغة الأذان المعروفة لتكون وسيلة لدعوة المسلمين للصلاة فاستحسن الرسول ﷺ هذا المقترح الذي يؤكد تمييز المسلمين عن غيرهم، وقال له: "قم إلى بلال فآلقها عليه، فليؤذن بها، فإنه أندى صوتاً منك" (٥).

عبد الله بن زيد

زيد اقترح

صيغة

الأذان

ويظهر مما أورده ابن سعد في طبقاته أن الأمر باتخاذ الأذان وسيلة للدعوة إلى الصلاة، قد جاء بعد تحويل القبلة إلى الكعبة أي في أواخر السنة الثانية للهجرة (٦).

(1) سورة البقرة، الآية 142:

(2) سورة البقرة، الآية 145:



3. فرض صيام شهر رمضان:

إن الصيام بمعنى الامتناع عن تناول الطعام طوال النهار كان معروفاً عند العرب وعند الأمم الأخرى قبل الإسلام. وقد أورد البخاري حديثاً عن عائشة رضي الله عنها أن قريشاً كانت تصوم يوم عاشوراء قبل الإسلام " وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه، فلما قدم المدينة صامه، وأمر بصيامه، فلما فرض رمضان ترك يوم عاشوراء، فمن شاء صامه، ومن شاء تركه" (1).

وقد أشير إلى أن اليهود كانوا يصومون يوم عاشوراء ف فسألهم الرسول صلى الله عليه وسلم حين قدومه للمدينة عن سبب صومهم له فأخبروه أنه اليوم الذي غرق الله فيه آل فرعون ونجى موسى ومن معه منهم. فقال: نحن أحق بموسى منهم، فصام وأمر الناس بصومه" (2).

يبدو مما تقدم أن أمر الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين من أهل المدينة بصيام عاشوراء بعد أن وجد أن اليهود يصومونه جاء تأكيداً لعادة دينية كانت تمارسها قريش ويمارسها هو قبل الهجرة ورغبة في توثيق العلاقات مع اليهود.

وفي شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة، على رأس ثمانية عشر شهراً من قدوم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، أي بعد تحويل القبلة إلى الكعبة بشهر، فرض صيام شهر رمضان (3)، ويظهر من آيات القرآن الكريم أن الله قد اختار هذا الشهر ليكون شهر الصيام لأنه الشهر الذي نزل فيه القرآن أول مرة على الرسول صلى الله عليه وسلم في غار حراء: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ (4).

وقد لوحظ أن فرض الصوم في شهر رمضان هو متابعة لتقاليد كان يمارسها الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة، وهي جزء من السياسة العامة في التوجه إلى مكة ومتابعة تقاليدھا الدينية القديمة السليمة بعد تطهيرها من مفاصد الشرك وجعلها إسلامية لله وحده، والعودة إلى دين إبراهيم (5). وبذلك أصبح للمسلمين صيامهم الخاص بهم في شهر رمضان المبارك، وبرزت شخصيتهم الدينية المتميزة، قبل أن يتوجهوا إلى محاربة قريش في معركة بدر في السابع من شهر رمضان نفسه.

(1) ابن المبارك: التجريد الصريح، ج 1، ص 126.

(2) الطبري: تاريخ، ج 2، ص 417.

(3) المصدر نفسه، ج 2، ص 417: ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 248.

(4) سورة البقرة، الآية 185.

4. الصراع المسلح على الجبهة الداخلية والخارجية:

يبدو أن تمييز المسلمين في عقيدتهم وعبادتهم، وانتصارهم الكبير على قبيلة قريش الذي تحقق في معركة بدر، قد أثار الخوف والهلع في نفوس أعداء الدعوة الإسلامية على الجبهة الخارجية والداخلية. ففي الوقت الذي شرعت فيه قريش في التهيؤ والاستعداد للمعركة القادمة كي تثار للهزيمة التي إصابتها بدر، أخذ المنافقون واليهود بالتشكيك في أهمية انتصار المسلمين.

وإذ كان بإمكان الرسول ﷺ أن يترك أمر قريش ريثما تستعد لمواجهته بعد فترة من الزمن، فإنه لم يكن يوسع أن يترك اليهود يمارسون حريتهم بالتعاون مع المنافقين في تهديد الجبهة الداخلية لدولة المدينة.

ويلاحظ أن الرسول ﷺ لم يكن راغبا في الدخول في مواجهة مسلحة مع جميع يهود المدينة، وإنما العمل على حصر المواجهة مع الفئة القليلة التي تنقض عهودها معه أو تتحدها بصورة لا يبقى معها أمامه من خيار سوى اللجوء إلى القوة لتسوية الخلاف معها.

لقد وصف بعض (المستشرقين) سياسة الرسول ﷺ تجاه اليهود بأنها سياسة شديدة كانت تستهدف طرد جميع اليهود من المدينة "لا لسبب إلا لأنهم يهود"⁽¹⁾. غير أن التحقيق العلمي المنصف يثبت عكس ذلك، إذ لم تكن من عادة الرسول ﷺ كما يقول المستشرق وات: "اتباع سياسة قاسية بهذا الشكل، بل كانت نظراته معتدلة، يحسب حساب المشاكل الرئيسية التي تؤثر في الحالة الراهنة والأهداف البعيدة التي يسعى إلى تحقيقها. واعتمادا على هذه المعطيات كان يكيف موقفه يوما بيوم منسجما مع العوامل المتغيرة التي تنتج عن الحوادث اليومية"⁽²⁾.

في ضوء ما تقدم، فقد تعامل الرسول ﷺ مع القبائل اليهودية كل على حدة، ولم يحاول أن يمد صراعه مع إحداها ليشمل بقية القبائل الأخرى طالما بقيت على الحياد على الرغم من إدراكه العميق للمشاعر السلبية التي كان يحملها اليهود كافة، له ولدعوته، وهكذا فقد بدأ الصراع المسلح بين المسلمين ويهود المدينة من قبيلة بني قينقاع في السنة الثانية للهجرة لينتهي مع يهود بني قريظة في السنة السادسة، حيث تمت تصفية الوجود المسلح لليهود في المدينة، وقد تخلل هذا الصراع بعض المعارك على الجبهة الخارجية مع قريش وبعض القبائل البدوية كان أخطرها معركة أحد

(1) وات: محمد في المدينة، ص 330.

(2) المصدر نفسه، ص 330-331.

الجبهة

الداخلية

لهود منافقين

الجبهة

الخارجية

مركب

قريش

٥٢

طالما بقيت

يهود بني

قينقاع

يهود بني

نضير

يتضح مما تقدم أن الرجال الذين كان يبعثهم الرسول ﷺ لجباية الصدقات كانوا جباة معلمين، يمارسون تعليم الناس وإرشادهم إلى جانب جباية الصدقات وهؤلاء الجباة المعلمون "لم يسلوا يد رؤساء القبائل حين وقفوا إلى جوارهم، بل كانوا يتعاونون معهم تعاوناً تاماً، وفي بعض الأحيان يضعون أنفسهم تحت حمايتهم"⁽¹⁾. وكان هؤلاء الجباة يقومون بتوزيع ما تجمع لديهم من الأموال على الفقراء توزيعاً محلياً ولا يرسلون شيئاً منه إلى المدينة إلا ما فاض عن الحاجة⁽²⁾.

وهكذا ما كاد العام التاسع للهجرة ينتهي ويدخل العام العاشر حتى كان النظام الإسلامي وسلطة الدولة العربية الإسلامية قد عمت معظم أنحاء شبه الجزيرة العربية، وبدأ العرب ينعمون بنعمة الوحدة والاستقرار. فكان حرياً بهم أن يتوجهوا إلى مكة في موسم الحج ليشكروا الله على فضله ونعمته، وقد قاد الرسول ﷺ بنفسه المسلمين لأداء فريضة الحج في هذا العام، وكانت تلك أول مرة يقام فيها الحج على الطريقة الإسلامية دون أن يشاركهم فيه أحد من المشركين.

إحدى عشر: حجة الوداع:

خرج الرسول ﷺ من المدينة في 25 ذي القعدة سنة 10 للهجرة لأداء فريضة الحج، وهي أول مرة يؤدي فيها هذه الفريضة⁽³⁾، وكان الرسول ﷺ قد "أذن الناس بذلك، فقدم المدينة بشر كثير يأتون برسول الله ﷺ في حجته"⁽⁴⁾. ويبدو أنه كان بينهم زعماء القبائل وأشرافهم، فخرج إلى مكة ومعه أشراف من أشراف الناس⁽⁵⁾ كما يقول ابن إسحاق، حتى وصل مكة في 4 ذي الحجة سنة 10هـ⁽⁶⁾.

وقد أسهبت كتب التاريخ والحديث في تقديم تفاصيل عما قام به الرسول ﷺ في هذه المناسبة لتعليم الناس كيفية أداء مناسك الحج، وتعريفهم بأمور دينهم⁽⁷⁾، وكان مسك الختام في ذلك هو خطبة الرسول ﷺ بعرفة. فكان مما قال فيها: "أيها الناس إسمعوا قولي، فإنني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، أيها

(1) الشريف: مكة والمدينة، ص 538.

(2) المرجع نفسه، ص 538.

(3) ابن هشام: السيرة، ق 2، ص 601.

(4) ابن سعد: الطبقات، ج 2، ص 172 - 173.

(5) ابن هشام: السيرة، ق 2، ص 601.

(6) ابن سعد: الطبقات، ج 2، ص 175.

(7) ابن هشام: السيرة، ق 2، ص 601 - 606، ابن سعد، الطبقات، ج 2، ص 172 - 189، الطبري:

تاريخ، ج 3، ص 148 - 152، ابن كثير: السيرة النبوية، ج 2، ص 360 - 440.

تاريخهم

الباب الأول / الفصل الثامن: امتداد دولة المدينة وسيادة الإسلام

تعاريفاً أو

مفردات

أو لماذا

صحة

بكذا

حجة

الإسلام،

حجة

الوداع،

حجة فرار

البلاغة

الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون، قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع،.... أما بعد، أيها الناس، فإن الشيطان قد يشتر من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه أن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم... فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بينا، كتاب الله وسنة نبيه، أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخو المسلم، وإن المسلمين أخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغت؟... فقال الناس اللهم نعم، قال رسول الله ﷺ: اللهم أشهد⁽¹⁾.

لقد وصفت حجة الرسول ﷺ هذه بـ "حجة البلاغ"⁽²⁾ ربما لأن الرسول ﷺ حينما انتهى من خطبته التي بين فيها أحكام الإسلام العامة تساءل قائلاً: اللهم هل بلغت؟ كما كان المسلمون يسمونها "حجة الإسلام"، ربما لأنها كانت أول مرة يحج فيها المسلمون لوحدهم دون أن يحضرها أي مشرك وقد تمت على وفق المناسك التي بينها الرسول ﷺ لهم. وقد اشتهرت هذه الحجة بين الناس بعد ذلك باسم "حجة الوداع" لأن الرسول ﷺ قد ودع فيها أمته قبل وفاته فكانت حجته الأولى والأخيرة، وكان ابن عباس يكره أن يقال حجة الوداع، ويقول حجة الإسلام⁽⁴⁾.

وقد كانت هذه الحجة ذروة ما وصله المسلمون في عصر الرسالة من وحدة وقوة وكمال، فكانت حجة الإسلام، وحجة البلاغ، وحجة الوداع، وكان أعظم مأتم في هذه المناسبة أنه نزلت على الرسول ﷺ فيها آية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾⁽⁵⁾.

لقد أورد ابن كثير أن رجلاً من اليهود جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: "يا

(1) ابن هشام: السيرة، ق 2، ص 603 - 604.

(2) الطبري: تاريخ، ج 3، ص 152.

(3) ابن سعد: الطبقات، ج 2، ص 172.

(4) المصدر نفسه، ج 2، ص 172.

(5) سورة المائدة، الآية 3، ابن سعد: الطبقات، ج 2، ص 188، ابن كثير: السيرة النبوية، ج 2، ص 418.